سورة المؤمنون

مكية وهي مائة وثمان عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾.

﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ كلمة «قد» ههنا لإفادة ثبوت ما كان متوقع الثبوت، والفلاحُ: هو الفوز بالمراد أي قد فازوا بكل خير، ونَجَوْا من كل ضر، حسبما كان متوقعاً من حالهم، فإن إيمانهم، وأعمالهم الصالحة، من دواعي الفلاح، بموجب الوعد الكريم ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ المصدِّقون بما عُلم من دين نبينا ﷺ، من التوحيد، والنبوة، والبعث، ونظائرها.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ الخشوعُ: الخوف والتذلُّل، وقيل: هو ترك الالتفات في الصلاة، روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: «سألتُ رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة، فقال: هو اختلاسٌ يختلسه الشيطانُ من صلاة العبد»(١) والاختلاسُ: هو الاختطاف، ورأى ﷺ مصلياً

(١) الحديث أخرجه البخاري ٢/ ١٩٤ في صفة الصلاة، وأبو داود رقم ٩١٠ باب الالتفات في الصلاة.

يعبث بلحيته، فقال: «لو خشع قلبُ هذا، لخشعتْ جوارحُه»[1] وقال ﷺ: «لا يزال الله مقبلاً على العبد، وهو في صلاته، ما لم يلتفت، فإذا التفت انصرف عنه»[2].

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ﴾ أي عن الكذب، والباطل، وكلِّ ما لا يعنيهم وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال ﴿مُعْرِضُونَ﴾ أي في عامة أوقاتهم، ينزّهون أسماعهم عن كل باطل، وإقامة الإعراض مقام الترك، ليدل على تباعدهم عنه رأساً.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ مؤدون، ولفظ ﴿فاعلون﴾ يدل على المداومة بخلاف مؤدون.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ ممسكون لها عن الحرام، والفرج: اسم لسوأة الرجل والمرأة.

﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾﴾.

---

(١) الحديث أخرجه أبو نعيم في الحلية.
(٢) أخرجه أبو داود رقم ٩٠٩ والنسائي ٣/٨ باب التشديد في الالتفات في الصلاة، وصححه الحاكم.

﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ أي لا يرسلونها على أحد إلا على أزواجهم وفيه إيذان بأن قوتهم الشهوية داعية لهم إلى ما لا يخفى، وأنهم حافظون لها، وبذلك يتحقق كمالِ العفة ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ أي سراريهم، والآية في الرجال خاصة، لأن المرأة لا يجوز أن تستمتع بمملوكها ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ تعليل لما يفيده الاستثناء، من عدم حفظها منهن، فإنهم غير ملومين على عدم حفظها منهن؛ بل يُباح لهم الاستمتاع بهنَّ من غير محظور.

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾﴾.

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر من أربع من الحرائر، وما شاء من الإماء ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ أي الكاملون في العدوان، وفيه ما يدل على تحريم المتعة، لأنها ليست زوجة له، ولأنهما لا يتوارثان بالإجماع.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ﴾ لما يؤتمنون عليه، من جهة الحق والخلق ﴿رَٰعُونَ﴾ قائمون عليها وحافظون لها على وجه الإصلاح.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ﴾ المفروضة عليهم ﴿يُحَافِظُونَ﴾ أي يواظبون عليها ويؤدونها في أوقاتها، وليس فيه تكرير لما أن الخشوع في الصلاة غير المحافظة عليها.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي أولئك المنعوتون بالنعوت الجليلة المذكورة ﴿هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ أي الأحقاء بأن يسموا وُرَّاثاً دون من عداهم.

opeikanal.com

﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ ﴾ بيان لما يرثونه، وتفسير لها بما سيلقونه منها، تفخيماً لشأنها، لاستحقاقهم الفردوس بأعمالهم، حسبما يقتضيه الوعد الكريم. والفردوسُ: هو أعلى الجنة، لما روي عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة مائة درجة، ما بين كل درجة ودرجة، كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومنها تَفَجَّر أنهار الجنة، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس»[١] ﴿ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ لا يخرجون منها أبداً ولا يموتون.

روي عن عمر بن الخطاب أنه قال: قرأ الرسول ﷺ: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ إلى عشر آيات من أولها ثم استقبل القبلة وقال: «اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، اللهم أرضنا وارض عنا، ثم قال: لقد أنزل الله عليَّ عشر آياتٍ من أقامهن دخل الجنة»[٢] وتلا الآيات.

﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ ﴾ شروع في بيان مبدأ خلق الإنسان، والمراد بالإنسان الجنس، أي وبالله لقد خلقنا جنس الإنسان، في ضمن خلق آدم عليه السلام خلقاً إجمالياً ﴿ مِن سُلَٰلَةٖ ﴾ من خلاصة سُلَّت من بين الكدر، والسلالة: الخلاصةُ ﴿ مِّن طِينٖ ﴾ أي كائنة من طين، و«من» بيانية، وذلك لأن الإنسان إنما يتولد من الأغذية، والأغذية تتولد من صفو الأرض، فالإنسان بالحقيقة من سُلالة من طين، وقيل: المراد بالطين آدم عليه السلام، لأنه خلق منه.

(١) أخرجه الترمذي في صفة الجنة رقم ٢٥٣٣ وأحمد في المسند ٥/ ٣٣٧.
(٢) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١٧٣ ورواه أحمد في المسند.

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ ﴾ أي جعلنا نسله ﴿ نُطْفَةً ﴾ بأن خلقناه منها وجعلنا السلالة نطفة ﴿ فِى قَرَارٍ ﴾ أي مستقر، وهو الرحم، عبَّر عنها بالقرار مبالغة ﴿ مَّكِينٍ ﴾ أي حصين، سُمِّي مكيناً لمكانتها في نفسها، وحفظها فيه بدقة.

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ أي دماً جامداً، بأن أحلنا النطفة البيضاء إلى علقة حمراء ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ أي قطعة لحم ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا ﴾ بأن صلَّبناها عموداً للبدن، على أوضاع مخصوصة، تقتضيها الحكمة ﴿ فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ﴾ من بقية المضغة ما يليق به من اللحم، على المقدار اللائق به وهيئة مناسبة له، وحيث كان اللَّحمُ يستر العظم، جعله كالكسوة له ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ أي خلقاً مبايناً للخلق الأول، حيث جعله حيواناً وكان جماداً، وناطقاً وكان أبكم، وسميعاً وكان أصم، وبصيراً وكان أكمه، وأودع باطنه وظاهره عجائب فطرة، وغرائب حكمة ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ ﴾ فتعالى شأنه في علمه الشامل، وقدرته الباهرة، والالتفات إلى الاسم الجليل، لتربية المهابة، وإدخال الروعة، والإشعار بأن ما ذُكر من أحكام الألوهية ﴿ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ أي أحسن المقدرين تقديراً، فحذف المميَّز لدلالة الخالقين عليه، والمراد أحسنُ من خلق وأبدع الخلق!!.

﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ أي بعد ما ذكر من الأمور العجيبة ﴿ لَمَيِّتُونَ ﴾ لسائرون إلى الموت لا محالة، عند انقضاء آجالكم.

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ أي عند النفخة الثانية ﴿ تُبْعَثُونَ ﴾ من قبوركم، للحساب والمجازاة، بالثواب والعقاب.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ ﴾ أي خلقنا في جهة العلو فوقكم يا بني آدم ﴿ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾ أي سبع سماوات، سُمّيت بذلك لأن بعضها فوق بعض، ولأنها طرائق الملائكة ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ ﴾ عن جميع المخلوقات من البشر ﴿ غَـٰفِلِينَ ﴾ أي مهملين أمرها، بل نحفظها وندبِّرها، حتى تبلغ نهايتها في الحياة.

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ ﴾ هو المطر أنزلناه بحسب الحاجة ﴿ بِقَدَرٍ ﴾ أي بتقدير لائق، لا كثيراً فيتلف ويفسد، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار، إنما أنزلناه بمقدار ما علمناه لمصالحهم ﴿ فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي جعلناه ثابتاً قارّاً فيها ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ ﴾ أي على إزالته بالإفساد، أو التغوير في الأرض، بحيث يتعذر استنباطه ﴿ لَقَـٰدِرُونَ ﴾ كما كنا قادرين على إنزاله، فقيّدوا هذه النعمة بالشكر كما قال سبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوراً فَمَنْ يأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ﴾؟.

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ﴾ أي بذلك الماء ﴿جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا﴾ في الجنات ﴿فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ تتفهكون بها ﴿وَمِنْهَا﴾ أي من الجنات ﴿تَأْكُلُونَ﴾ أي لكم في ثمرتهما أنواع من الفواكه: الرطبُ، والعنبُ والتمرُ، والزبيبُ، والعصير، والدبسُ، وغير ذلك.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ أي وشجرة الزيتون المباركة التي تنبت حول جبل الطور، وتخصيصها بالذكر، لاستقلالها بمنافع عديدة ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ أي تنبت بثمر الدهن يعني الزيت ﴿وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾ أي وإدام للآكلين، والصِّبْغُ: ما يُصبغ به ويختص بكل إدام مائع، كالخلِّ ونحوه، وإنما أضيفت الشجرة إلى هذا الجبل، لأنها منه تشعَّبتْ في البلاد، وانتشرتْ، ومعظمُها هناك.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ أي تعتبرون بحالها، وتستدلون بها على عظمة الله وجلاله، وهذا بيانٌ للنعم الفائضة من جهة الحيوان ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا﴾ تفصيل لما فيها من مواقع العبرة، والمراد بالبطون الجوف أو عن العلف الذي يتكون منه اللبن، أي نخرج من بطونها لبناً سائغاً ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾ غير ما ذكر من أصوافها، وأوبارها، وأشعارها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي لحومها، فتنتفعون بأعيانها كما تنتفعون بما يحصل منها.

﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ وَعَلَيْهَا ﴾ أي على الأنعام، والمراد بها خاصة الإبل، لأنها هي المحمول عليها عندهم ﴿ وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ وفي الجمع بينها وبين الفلك في إيقاع الحمل عليها، مبالغة في تحملها للحمل، وهو الداعي إلى تأخير ذكر هذه المنفعة، لأنها سفائن البر، قال ذو الرمة «سفينة بر تحت خدي زمامها» يريد ناقته، فإنها تحمله وتحمل أثقاله وزاده.

ولما بين تعالى دلائل التوحيد، أردفها بالقصص للعظة والاعتبار فقال:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ أي ما لكم إلـه غير الله تعالى، وفي إيراد قصة نوح عليه السلام إثر قوله: ﴿وَعَلَى الفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ من حسن الموقع ما فيه، إذْ كانت نجاتُه ونجاةُ المؤمنين معه، بواسطة الفُلْك والآية شروع لبيان إهمال الأمم السابقة، وتركهم النظر والاعتبار، فيما عدّد من النعم، وعدم تذكرهم بتذكير رسلهم، وما حاق بهم من العذاب، تحذيراً للمخاطبين ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾؟ أي أفلا تتقون عذابه، الذي يستوجبه ما أنتم عليه؟.

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ أي هو بشر مثلكم،

يأكل ويشرب، وهو مشارك لكم في جميع الأمور، وصفوه بذلك، مبالغة في إنزال رتبته العالية، وحطًّا عن منصب النبوّة ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي يريد أن يطلب الفضل عليكم، مع كونه مثلكم، يقولون ذلك، إغراءً لهم على معاداته ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أي لأرسل رسلاً من الملائكة ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ أي بمثل هذا الكلام، الذي هو الأمر بعبادة الله وحده ﴿فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ أي الماضين قبل بعثته عليه السلام، قالوه لفرط غلوهم في التكذيب.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما هو ﴿إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي جنون ولذلك يقول ما يقول ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ﴾ أي فاحتملوه واصبروا وانتظروا ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ لعله يفيق مما فيه وإلا قتلتموه، رضوا بالألوهية للحجر، ولم يرضوا بالنبوة للبشر.

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ عليه السلام بعدما يئس من إيمانهم ﴿رَبِّ انصُرْنِي﴾ بإهلاكهم فإنه حكاية إجمالية لقوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أي بسبب تكذيبهم إياي.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ۙ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ أي أجبنا دعاءه وأوحينا عند ذلك إليه ﴿أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ أَنْ مفسرة لما في الوحي من معنى القول ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ ملتبساً

بحفظنا، كأنّ معه عليه السلام منه عزَّ وجلَّ حُرَّاساً يكلؤونه بأعينهم من التعدي ﴿وَوَحْيِنَا﴾ وتعليمنا لكيفية صنعها ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي عذابنا والمراد بمجيئه كمال اقترابه، أي إذا جاء وقت عذابنا ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ هو التنُّورُ الذي يُخبز فيه، وقيل: هو وجهُ الأرض، روي ذلك عن ابن عباس قيل له: إذا فار الماء من التنور، اركبْ أنت ومن معك، فلما نبع منه الماء، أخبرته امرأته فركبوا ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾ أي ادخل فيها، يقال: سلك فيه أي دخل فيه، قال الله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾؟ ﴿مِن كُلٍّ﴾ أي من كل صنف ﴿زَوْجَيْنِ﴾ أي فردين مزدوجين ذكرٍ وأنثى ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ فإنه نص في الفردين، وذلك لئلا ينقطع ذلك الحيوان ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أهل بيتك أو من آمن معك ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أي سبق من الله تعالى القول بإهلاكه، وإنما جيء بعلى، لأن السابق ضار، كما جيء باللام في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الحُسْنَىٰ﴾ لكونها نافعاً ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي﴾ بالدعاء لهم لإنجائهم ﴿فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ لا محالة لظلمهم بالإشراك والمعاصي.

﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ﴾ أي إذا تمكنتم ﴿أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ القَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾.

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى﴾ من السفينة إلى الأرض ﴿مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ أي إنزالاً مباركاً، يستتبع خيراً كثيراً ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ ثناء مطابق لدعائه، أمره بأن يُشفعه به، مبالغة وتوسلاً به إلى الإجابة، إذْ بالشكر تدوم النِّعم.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ فيما فعل بنوح وقومه ﴿ لَآيَٰتٍ ﴾ جليلة يستدل بها أولو الأبصار، على عظمة الواحد القهار ﴿ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ أي لمختبرين بهذه الآيات عبادنا، لننظر من يعتبر ويتذكر، بآيات الله الباهرة.

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ أي من بعد إهلاكهم ﴿ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ هم «عاد» حسبما روي عن ابن عباس، وعليه أكثر المفسرين، وهو الأوفق لما هو المعهود في سائر السور الكريمة، من إيراد قصة هود، إثر قصة قوم نوح.

﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ ﴾ لم يأتهم من غير مكانهم، ولم يكن غريباً عنهم، بل إنما نشأ من بين أظهرهم، كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ أي من جملتهم نسباً ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾؟ أي أفلا تخافون عذابه وانتقامه إن كفرتم؟.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أي بمعادهم إلى الحياة الثانية بالبعث ﴿ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ونعّمناهم ووسّعنا عليهم في

الدنيا ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ﴾ أي ما هو إلا إنسان مثلكم وليس برسول ﴿يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ﴾ تقرير للمماثلة، وإيثار مثلكم على مثلنا، للمبالغة في تهوين أمره، والحطِّ من شأنه.

﴿وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ﴾ أي امتثلتم بأوامره ﴿إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ عقولكم، حيث أذللتم أنفسكم بطاعة شخصٍ مثلِكم.

انظر كيف جعلوا اتّباع الرسول الحق، الذي يوصلهم إلى سعادة الدارين خسراناً، دون عبادة الأصنام؟.

﴿أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿أَيَعِدُكُمۡ﴾ أي أيعدكم بالحياة بعد الموت؟ والغرضُ زجرهم عن اتِّباعه، بإنكار وقوع ما يدعوهم إلى الإيمان به ﴿أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا﴾ أي أصبحتم عظاماً نَخِرة، مجرَّدة عن اللحوم والأعصاب ﴿أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ﴾ من القبور أحياء.

﴿۞ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿۞ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ﴾ أي بَعُد، بَعُد هذا الذي توعدونه، من الإخراج من القبور بعد موتكم، التكرير للتأكيد ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ أي لما يخبركم عنه من البعث، والحساب، والجزاء.

﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ أصله ما الحياة إلاّ حياتنا، فأُقيم الضميرُ مقام الأولى، لدلالة الثانية عليها، حذراً من التكرار، وإشعاراً بإغنائها عن

التصريح، كما في «هي النفس تتحمل ما حُمِّلتْ» ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ لم يريدوا بقولهم هذا «نموت ونحيا» الشخص الواحد، لأنهم منكرون للبعث، بل أرادوا أن البعضَ يموت، والبعض يحيا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد الموت.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما هو ﴿إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فيما يدَّعيه من إرساله إلينا رسولاً، وفيما يعدنا من البعث ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي بمصدّقين له فيما يقوله!!

﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ أي هود عليه السلام، عند يأسه من إيمانهم، متضرعاً إلى الله عزَّ وجلَّ ﴿رَبِّ انْصُرْنِي﴾ عليهم وانتقم لي منهم ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أي بسبب تكذيبهم لي.

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ تعالى إجابة لدعائه ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ أي عن زمان قليل ﴿لَيُصْبِحُنَّ﴾ ليصيرن ﴿نَادِمِينَ﴾ على ما فعلوا من التكذيب.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ لعلهم حين أصابتهم الريح العقيم، أصيبوا في تضاعيفها بصيحة هائلة أيضاً، روي أن شداد بن عاد حين أتم إرم سار

إليها بأهله فلما دنا منها بعث الله صيحة من السماء فهلكوا، وقيل: الصيحة نفس العذاب الذي نزل بهم، قال قائلهم:

صَاحَ الزمانُ بآلِ بَرْمَكَ صَيْحَةً   خَـرُّوا لِشِـدَّتِهَـا عَلَـى الأَذْقَـانِ

﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي بالأمر الثابت، الذي لا دافع له، وبالعدل ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ﴾ أي كغثاء السيل وهو حميله ﴿ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وهو من المصادر التي لا يكاد يستعمل ناصبها أي بعدوا بعداً، أي هلكوا واللام لبيان من قيل له بعداً، فبعداً بمنزلة اللعن، ذُكِر على وجه الاستخفاف والإهانة.

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ أي من بعد هلاكهم ﴿ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴾ هم قوم صالح، ولوط، وشعيب، عليهم السلام وغيرهم.

إن الله سبحانه يقص القصص في القرآن، تارة مفصلاً، وتارة مجملاً كما هنا، والمعنى: ما أخلى الديارَ من المكلَّفين بل خَلَق بعدهم أمماً آخرين.

﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾ أي ما تتقدم أمة على الوقت الذي عُيِّن لهلاكها، ولا تتأخر عنه.

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا ﴾ «ثم» للتراخي، يعني أن إرسال كل رسول، متأخر عن إنشاء قرن مخصوص بذلك الرسول، كأنه قيل: ثم أنشأنا من بعدهم

قروناً، قد أرسلنا إلى كل قرن منهم رسولاً خاصاً به ﴿تَتْرَا﴾ أي متواترين واحداً بعد واحد، ومنه جاؤوا تترى أي متتابعين ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ في أول الملاقاة، وفيه تشنيع عليهم بكمال ضلالهم، حيث كذبت كل واحدة منهم رسولهم ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ في الهلاك، حسبما تبع بعضهم بعضاً في مباشرة أسبابه، التي هي الكفرُ، والتكذيب، وسائر المعاصي ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي لم يبق منهم إلا حكايات، يعتبر بها المعتبرون، وهو جمع أحدوثة، وهي ما يتحدث به تلهياً وتعجباً، أي جعلناهم قصصاً تُروىٰ، وأحاديث يتجدث بها تعجباً ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي فهلاكاً ودماراً لقوم لا يؤمنون بالله.

اقتصر ههنا على وصفهم بعدم الإيمان، أما القرون الأولى فحيثُ نقل عنهم الغلوّ في الكفر والعدوان، وصفوا بالظلم.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ هي الآيات التسع ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي حجة واضحة ملزمة للخصم، تدلُّ على صدقهما وتأييد الله لهما بالبراهين القاطعة.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي أشراف قومه ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن الانقياد ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾ متكبرين ومتمردين على الله ورسوله.

﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿فَقَالُوٓا۟﴾ أي قالوا فيما بينهم ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾؟ يعنون موسى وهارون عليهما السلام ﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ يعنون بني إسرائيل ﴿لَنَا عَٰبِدُونَ﴾؟ أي

خادمون، منقادون لنا كالعبيد، كأنهم قصدوا التعريض بشأنهما، وحطّ رتبتهما، بناء على زعمهم الفاسد، المؤسس على التقدم في نيل الحظوظ الدنية، مِن المال والجاه، كدأب قريش، حيث قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[1]؟ وجهلهم بأن مناط الاصطفاء للرسالة، هو السبق في إحراز الملكات السنية، بالقوة القدسية، مع صفاء الجوهر الذاتي، فأنى لهم هذا خذلهم الله!.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٨)﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أي فاستمروا على تكذيبهما، وأصرُّوا واستكبروا ﴿فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ في البحر.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩)﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ قوم ﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة بعد إهلاكهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ إلى طريق الحق، بالعمل بما فيها.

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠)﴾.

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ دالة على عظيم قدرتنا، بولادته منها من غير مسيس بشر ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ إلى أرض مرتفعة هي بيت المقدس ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أي مستقر يستقر عليها ساكنوها، وكانت ذات ثمار وزروع، لأجلها يستقر فيها الناس ﴿وَمَعِينٍ﴾ أي وماءٍ معين ظاهر يجري على وجه الأرض، مَعَن الماءُ جرى، فهو معين.

---

(١) سورة الزخرف، آية: ٣١.

نبّه سبحانه على كمال نعمه عليهما، بهذا اللفظ على اختصاره.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ خوطب به كل رسول في عصره، وليس إباحة الطيبات من خصائص عيسى عليه السلام، بل هو شرع قديم، أي وقلنا لكل رسول: كلْ من الطيبات، وفيه من الدلالة على بطلان ما عليه الرهبانية، من رفض الطيبات ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ أي عملاً صالحاً موافقاً للشرع الشريف، وتقديم قوله: ﴿كلوا من الطيبات﴾ كالدلالة على أن العمل الصالح، لا بد أن يكون مسبوقاً بأكل الحلال الطيب ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ من الأعمال الظاهرة والباطنة، فأجازيكم عليه.

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ٥٢﴾.

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ أي خافوا عذابي وعقابي، وهو استئناف داخل فيما خوطب به الرسل عليهم السلام، مسوقٌ لبيان أن ملة الإسلام والتوحيد، مما أُمر بها كافة الرسل والأمم، فمن دخل في الإسلام، يشعر بأنه صار أخاً لجميع المسلمين، وأن أمته هي الأمة الإسلامية، لا العربية، ولا الفارسية، ولا التركية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وقال ﷺ في خطبة الوداع: «يا أيها الناس، ألاَ إن ربكم واحد، لا فضل لعربيّ على عجمي، ولا لعجميٍّ على عربي، إلاَّ بالتقوى» الحديث..

واليوم حدثت العصبية الجاهلية التي حرمها الإسلام، بعد أن ضعف العلم والدين، حتى قام بعض الأعاجم يفتخر بسلفه من الوثنيين والمجوس، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ أي فاحذروا مخالفتكم أمري، والأمر في حقِّ الرسل للتهييج، وفي حق الأمم للتحذير والإيجاب.

﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾ أي تقطعوا أمر دينهم مع اتحاده، وجعلوه أدياناً مختلفة ﴿ زُبُرًا ﴾ أي قِطَعاً، جمع زبور بمعنى الفرقة، أي أدياناً مختلفة ﴿ كُلُّ حِزْبٍۭ ﴾ من المتحزّبين ﴿ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ من الذي اختاروه ﴿ فَرِحُونَ ﴾ مسرورون، ومعتقدون أنهم على الحق.

﴿ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ ﴾ شبّه ما هم فيه من الجهالة، بالماء الذي يغمر القامة، لأنهم مغمورون فيها، والغمرةُ: الانهماكُ في الباطل، والخطاب للرسول ﷺ، أي اتركهم على حالهم ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ هو حين موتهم، فهو وعيد لهم، والمراد به الحالة التي تقترن بها الحسرة والندامة.

﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴾ أي نعطيهم إياه.

﴿ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾؟ أي أيحسبون أنما نسارع به لهم، فيما فيه خيرهم وإكرامهم، معاجلة بالثواب على حسن صنيعهم؟. ﴿ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ أي لا يشعرون بشيءٍ أصلاً، كالبهائم التي لا فطنة لها ولا شعور، ليتأملوا ويعرفوا أن ذلك الإمداد استدراجٌ لهم، كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ﴾[1] الآية.

---

(١) سورة التوبة، آية: ٨٥.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم ﴾. بيان من له المسارعة في الخيرات، إثر إقناط الكفار عنها ﴿ مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم ﴾ أي من خوف عذابه ﴿ مُّشْفِقُونَ ﴾ أي حذرون وخائفون.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ المنزلة على رسوله ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ بتصديقها ولا يفرقون بين كتبه ورسله.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ شركاً جلياً ولا خفياً، ولا يعبدون معه غيره، بل يوحدّونه ويخلصون له العمل طلباً لمرضاته.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا ﴾ أي يعطون ما أعطوه من الصدقات والخيرات، وأنواع القربات والصالحات ﴿ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ أي وهم خائفون مشفقون ألاّ يتقبل الله منهم، من قوة إيمانهم، وفرط إحسانهم، رُوي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أهم الذين يشربون الخمر، ويسرقون، ويخافون ربهم؟ قال: لا يا بنت الصِدِّيق، ولكنْ همُ الذين يصومون ويصلُّون ويتصدقون، ويخافون أن لا يُقبل منهم: ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾[1] ﴿ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ أي لأنهم يوقنون أنهم إلى الله عز وجل صائرون، للمجازاة.

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١٧٤ والحاكم ٢/ ٣٩٤ وصحّحه.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي أولئك المنعوتون ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ أي في نيل الخيرات الموعودة، كما في قوله تعالى: ﴿فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ﴾ وقد غيَّر الأسلوب، حيث لم يقل: نسارع لهم في الخيرات، بل أسند المسارعة إليهم، إيماءً إلى كمال استحقاقهم، لنيل الخيرات بمحاسن أعمالهم ﴿وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ أي ينالونها قبل الآخرة، حيث عجلت لهم في الدنيا.

﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ أي ولا نكلف أحداً من العباد ما لا يطيق، تفضلاً منا وإحساناً، والآية سيقت للتحريض على ما وصف من فعل الطاعات، ببيان أنه تعالى لا يكلف عباده ما ليس في وسعهم، وما عليهم إلا أن يبذلوا طاقتهم ﴿وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ﴾ أي صحائف الأعمال يقرؤونها عند الحساب ﴿يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي تظهر فيه أعمالهم، وكأنها تنطق عليهم بما عملوا، كقوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1] أي عندنا كتاب قد أثبت فيه أعمال كل أحد، على ما هي عليه، وقوله تعالى: ﴿يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي يُظهر الحقَّ، ويبين للناظر كما يبينه النطق للسامع، فيظهر هنالك جلائل أعمالهم ودقائقها، ويترتب عليها أجزيتها ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ أي لا يظلمون بنقص ثواب، أو بزيادة عذاب، بل يجزون بقدر أعمالهم.

(١) سورة الجاثية، آية: ٢٩.

﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ .

﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ الضمير للكفرة ﴿ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ ﴾ أي في عماية وغطاء، وغفلة غامرة، عن هذا القرآن ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ ﴾ خبيثة كثيرة ﴿ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ ﴾ الذي ذُكر، من كون قلوبهم في غفلة، وهي: فنون كفرهم ومعاصيهم ﴿ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴾ أي مستمرون عليها، لا يكفُّون عنها، ولا ينزجرون.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم ﴾ أي متنعميهم، وهم الذين أكرمهم الله بالمال والبنين، أي لا يزالون يعملون أعمالهم السيئة، إلى أن أخذنا رؤساءهم ﴿ بِٱلْعَذَابِ ﴾ هو القتلُ، والأسر، والجوعُ الذي أصابهم بالقحط، حتى أكلوا الكلاب والجِيَف ﴿ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴾ أي فاجئوا الصراخ بالاستغاثة من الله عز وجل، وتخصيص مترفيهم، مع عموم العذاب للكل لغاية ظهور أمرهم، فإذا كان المترفون ذاقوا العذاب، فلأن يلقاها من عداهم من الأتباع والخدم أولى.

﴿ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ .

﴿ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ﴾ أي لا تستغيثوا اليوم من العذاب ﴿ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴾ فإنكم لا تُمنعون من عذابنا، وهو تعليلٌ للنهي عن الجؤار، ببيان عدم نفعه، أي لا تلحقكم من جهتنا نصرةٌ تنجيكم.

﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ .

﴿ قَدْ كَانَتْ ﴾ تعليل لعدم النصر ﴿ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴾ أي تعرضون عن سماعها أشدَّ الإعراض، فضلاً عن تصديقها.

﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿ مُسْتَكْبِرِينَ ﴾ على المسلمين ﴿ بِهِۦ ﴾ أي بالبيت الحرام وبالحرم، تزعمون أنكم حماته وخدَّامه ﴿سَـٰمِرًا﴾ أي تسمرون بذكر القرآن، والطعن فيه، حيث كانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون، وكان عامة سمرهم ذكر القرآن بالانتقاص ﴿تَهْجُرُونَ﴾ من الهُجر وهو الفحش، هَجَر المريضُ في كلامه خَلَط وهذى، والهُجر بالضم الفحش.

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾ أي القرآن، والهمزة للإنكار، أي أفعلوا ما فعلوا من النكوص، والاستكبار، والهجر، فلم يتدبروا القرآن المعجز، ليعرفوا بما فيه من إعجاز النظم، وصحة الاستدلال، والإخبار عن الغيب أنه الحق من ربهم، فيؤمنوا به ﴿ أَمْ جَآءَهُم ﴾ أم منقطعة وما فيه من معنى بل للإضراب، والانتقال عن التوبيخ إلى توبيخٍ آخر، أي بل أجاءهم من الكتاب ﴿مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ حتى استبدعوه، واستبعدوا نزوله، فوقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر والضلال، يعني أن مجيء الكتب من جهته تعالى، سُنَّةٌ قديمة له تعالى، لا يكاد يتسنى إنكاره، وأن مجيء القرآن على طريقته، فمن أين ينكرونه ويعتقدون أن مجيء الرسل، أمرٌ على خلاف العادة، فقد عرفوا بالتواتر، أن الرسل عليهم السلام بعثوا إلى الأمم.

﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ ﴾ إضراب من التوبيخ إلى توبيخ بوجه آخر، والهمزة لإنكار الوقوع أيضاً، أي بل ألم يعرفوا رسولهم ﷺ بالأمانة، والصدق، وحسن الأخلاق، وكمال العلم، مع عدم التعلم من أحد، مما

حاز به الكمالات اللائقة بالأنبياء عليهم السلام؟ ﴿فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي جاحدون لنبوَّته، فهو تأكيد لما قبله.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ أي بل أيقولون به جنون، مع أنه أرجح الناس عقلاً وأثقبهم ذهناً، وأتقنهم رأياً، وأوفرهم رزانة ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ إضراب عما سبق، أي ليس الأمر كذلك في حق القرآن والرسول، بل جاءهم محمد بالصدق الثابت، الذي لا تخفى صحته وحسنه على عاقل، ولا مدخل للباطل عليه بوجه من الوجوه ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ أي ومع وضوح الأمر، فإن أكثر المشركين يكرهون الحق، لما في جبلتهم من الزيغ والانحراف حيث علموا أنهم لو أقرّوه ﷺ لزالت مناصبهم ورياستهم، ولذا كرهوا هذا الحق الأبلج، وزاغوا عن الطريق الأنهج، وتخصيص أكثرهم بهذا الوصف، لا يقتضي عدم كراهة الباقين للحقِّ المبين، وإنما ذكر الأكثر لأن من اهتدى منهم أقل من القليل.

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي لو كان ماكرهوه من الحق الذي من جملته ما جاء به ﷺ، موافقاً لأهوائهم الباطلة ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ وخرجت عن الصلاح والانتظام بالكلية، لأن مناط النظام ليس إلا ذلك، وفيه من تنويه شأن الحق، والتنبيه على سموِّ مكانه، ما لا يخفى!! ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ انتقالٌ من تشنيعهم بكراهة الحق، تشنيعهم بالإعراض عن الرغبة فيما فيه خيرهم وسعادتهم، والمراد بالذكر القرآن الذي هو فخرهم وشرفهم، حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾ والمعنى: بل أتيناهم بفخرهم وشرفهم، الذي كان يجب

عليهم أن يُقبلوا عليه أكمل إقبال، لأن الرسول ﷺ منهم، والقرآن بلغتهم، وهو أعظم شرف لهم ﴿فَهُمْ﴾ بما فعلوا من الإعراض والعناد ﴿عَن ذِكْرِهِم﴾ أي شرفهم خاصة ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ بسوء اختيارهم، ووَضع الظاهر بدل الضمير، لمزيد التشنيع عليهم.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا﴾ جُعْلاً وأجراً على أداء الرسالة، انتقالٌ إلى التوبيخ بوجه آخر، كأنه قيل: أم يزعمون أنك تسألهم على أداء الرسالة أجراً، فلذلك لا يؤمنون بك؟ والخَرْجُ، والخَرَاجُ: ما يحصل من غلَّة الأرض، ولذلك أُطلق على الجزية ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ أي رزقه في الدنيا، وثوابه في الآخرة خير لك يا محمد، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي هو تعالى أفضل من تكرَّم فأعطى ورزق.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو دين الإسلام، الذي تشهد العقول السليمة باستقامته، ليس فيه شائبة اعوجاج، ولقد ألزمهم الله عز وجل، وأزاح عللهم، في هذه الآيات، وبيَّن انتفاء ما عدا كراهتهم للحق، وقلَّة فطنتهم بمصالحهم، وما يسعدهم وينجيهم من عذاب الله.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ وصفوا بذلك تشنيعاً لهم، بما هم عليه من الانهماك في الدنيا، وزعمهم أن لا حياة إلا الحياة الدنيا، وإشعاراً بعلة الحكم، فإن الإيمان بالآخرة، من أقوى الدواعي إلى طلب الحق،

وسلوك سبيله ﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ أي عن جنس الصراط لعادلون عنه، فضلاً عن الصراط المستقيم، نكب عن الطريق: عَدَل ومال عنه.

﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ أي قحط وجدب ﴿لَّلَجُّواْ﴾ أي لتمادوا ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ إفراطهم في الكفر والاستكبار، وعداوة الرسول والمؤمنين ﴿يَعْمَهُونَ﴾ عامهين عن الهدى، ومتحيرين، روي أنه لمَّا أسلم «ثمامة بن أُثال» ولحق باليمامة ومنع الميرة عن أهل مكة، وأخذهم الله بالسنين، حتى أكلوا الميتة والكلاب والحشرات، فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ يرجوه الدعاء لكشف الضر، فنزلت الآية.

والمعنى: لو كشفنا عنهم ما أصابهم برحمتنا، لارتدوا إلى ما كانوا عليه، من الإفراط بالكفر والعصيان، وقد كان الأمرُ كذلك، فقد عادوا إلى الفجور والطغيان بعد أن أغاثهم الله بدعاء رسوله ﷺ.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ هو ما نالهم يوم بدر، وما أصابهم من فنون العذاب، من جملتها القحط المذكور، واللام جواب قسم محذوف، أي وباللهِ لقد أخذناهم بالعذاب العاجل ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ﴾ أي لم يخضعوا لله، بل أقاموا على العتو والاستكبار ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي وليس من عادتهم التضرع إليه تعالى[1].

---

(١) هكذا كان شأن الفجرة من طغاة مكة، لم يخضعوا لله ولم يستجيبوا لدعوة رسوله، وما رؤي منهم لينٌ وتوجه إلى الإسلام، وأما ما أظهره أبو سفيان من الاستكانة له =

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ٧٧ ﴾ .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ ﴾ هو عذاب الآخرة، كما ينبىء عند التهويل بفتح الباب، والوصف بالشدة ﴿ إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴾ متحيرون آيسون من كل خير، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ المُجْرِمُونَ﴾[(١)] أَبْلَسَ إبلاساً: سكتَ وأَيِسَ.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٧٨ ﴾ .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ ﴾ لتسمعوا بها الآيات التنزيلية ولتشاهدوا بها الآيات التكوينية، وخصَّهما بالذكر لأنهما يتعلق بهما كثير من المنافع الدينية والدنيوية ﴿ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ ﴾ لتفكروا بها ما تشاهدونه وتعتبروا وتستدلوا بها إلى غير ذلك ﴿ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾ أي شكراً قليلاً تشكرون تلك النعم الجليلة، لأن العمدة في شكرها استعمالها فيما خلقت لأجله والإذعان لمانحها، وأنتم تُخِلُّون بذلك إخلالاً عظيماً، وليس المراد أن لهم شكراً وإن قلَّ، وما مزيدة للتأكيد بمعنى حقاً.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٧٩ ﴾ .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ ﴾ أي خلقكم وبثكم ﴿ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ بالتناسل ﴿ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ أي تجمعون يوم القيامة لا إلى غيره، فما لكم لا تؤمنون به ولا تشكرونه؟.

= تعالى، فإنما هو نوع خنوع إلى أن يتم له غرضه، فحاله كما قيل عن بعض الطغاة المتجبرين: إذا جاع ضَغَا، وإذا شبع طغا، وأكثرهم مستمرون على هذا الشأن.

(١) سورة الروم، آية: ١٢.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ﴾ من غير أن يشاركه في ذلك شيء من الأشياء ﴿وَلَهُ﴾ خاصة ﴿ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ وهو المؤثر في اختلافهما أي تعاقبهما ازدياداً وانتقاصاً ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾؟ أي ألا تتفكرون فلا تعقلون أن الكل منا! ؟.

﴿بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿بَلۡ قَالُواْ﴾ كفار مكة عطف على مضمر، أي فلم يعقلوا، بل قالوا ﴿مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ أي آباؤهم ومن دان بدينهم.

﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ أي سنعود إلى الحياة مرةً أخرى؟.

﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا﴾ أي البعث ﴿مِن قَبۡلُ﴾ متعلق بالفعل من حيث إسناده إلى آبائهم لا إليهم، أي وُعِد آباؤنا من قبل ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي ما هذا إلاّ خرافات وأباطيل الأمم السابقة، وأكاذيبهم التي سطَّروها، جمع أسطورة كأعجوبة والأساطيرُ: الأباطيل، واحدها إسطارة وأسطورة، كأنهم قالوا: إن هذا الوعد كما وقع منه ﷺ، فقد وقع قديماً، ولم يوجد مع طول العهد، فظنوا أن الإعادة تكون في دار الدنيا.

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٨٤).

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ ﴾؟ من المخلوقات وأورد «مَنْ» ولم يقل «ما» تغليباً للعقلاء على غيرهم ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾؟ شيئاً فأخبروني به، وفيه استهانة بهم وسخرية، وتقرير لجهلهم، ولذلك أخبر بجوابهم، قبل أن يجيبوا.

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٨٥).

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ لأن بديهة العقل، تضطرهم إلى الاعتراف بأنه خالقها ﴿ قُلْ ﴾ عند اعترافهم ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾؟ فتعلمون أن من فطر الأرض ومن فيها ابتداءً، قادر على إيجادها ثانياً؟ فإن البدء ليس بأهون من الإعادة، بل الأمر بالعكس في قياس العقل!؟ وفيه الترغيب في التدبر، ليعلموا بطلان ما هم عليه.

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (٨٦).

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾؟ أعيد الرب تنويهاً لشأن العرش، ورفعاً لمحله عن أن يكون تبعاً للسماوات، وجوداً وذِكْراً.

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٨٧).

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ ﴾ إفحاماً لهم وتوبيخاً ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾؟ أي أفلا تخافون عذابه؟ وكيف تنكرون قدرته على البعث وهو الخالق المبدع جلَّ وعلا!؟.

﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ مما ذُكر ومما لم يذكر، أي ملكه التام، والملكوتُ: الملك الواسع، والواو والتاء للمبالغة، فتنبيء عن عظم الملك ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ ﴾ يغيث غيره إذا شاء ويحرسه ﴿ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ أي ولا يغيث أحد عليه، أي لا يمنع أحد منه أحداً إذا أراده بسوء ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي إن كنتم تعلمون فأخبروني عن ذلك!!.

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ أي لله ملكوتُ كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه ﴿ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾؟ فمن أين تخدعون وتصرفون عن الرشد، إلى ما أنتم عليه من الغيِّ؟ فإن من لا يكون مسحوراً مختلَّ العقل، لا يكون كذلك.

﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ ﴾ أي جئناكم بالأمر الصادق القاطع، الذي لا محيد عنه من التوحيد، والوعد بالبعث ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ فيما قالوا من الشرك، وإنكار البعث.

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾.

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ ﴾ كما يقوله النصارى، والقائلون الملائكة بنات الله، وهم مشركو مكة تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ يشاركه في الألوهية كما يقوله عبدة الأوثان وغيرهم ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ

﴿إِلَـٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾ أي لو كان معه آلهة كما يزعمون، لذهب كل واحد منهم بما خَلقه، واستبدَّ به، وامتاز ملكه عن ملك الآخرين، ووقع بينهم التغالب والتحارب، كما هو الجاري بين الملوك ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي لغلب بعضهم على بعض، فلم يكن يقدر على كل شيء، ولم يكن بيده وحده ملكوت كل شيء، ثمَّ نزَّه تعالى ذاته عز وجل فقال: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من إثبات الولد والشريك، وحيث لم يُرَ أثر التمايز، والتغالب، في ملكوت السماوات والأرض، عُلم أنه إله واحد، بيده ملكوت كل شيء.

﴿عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ هذا دليل آخر على انتفاء الشريك، بناءً على توافقهم في تفرده تعالى في ذلك، ولذلك رتب عليه بالفاء ﴿فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فإن تفرّده تعالى بذلك، موجب لتعاليه عن أن يكون له شريك، أو شبيه، أو نظير!.

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ﴾ أي ما تعدهم من العذاب في الدنيا.

﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي قريناً لهم، فيما هم فيه من شؤم الكفر، وفيه إيذان بكمال فظاعة ما وعدوه من العذاب، وكونه بحيث يجب أن يستعيذ منه الإنسان.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب ﴿لَقَـٰدِرُونَ﴾ ولكنا نؤخره.

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ بالخصلة التي هي أحسن، وهي الصفحُ، والإعراضُ، والصبرُ ﴿ٱلسَّيِّئَةَۚ﴾ يعني أذاهم، لكن لا بحيث يؤدي إلى وهن في الدين، وهو أبلغ من «ادفع بالحسنةِ السيئةَ» لما فيه من التنصيص على التفضيل، كأنه قال: ادفع بالحسنى السيئة، قيل هي منسوخة بآية السيف، والصحيح أنها محكمة، إذ المداراةُ محثوث عليها، ما لم تؤدِّ إلى ثَلْم دين، أو نقصان مروءة ﴿نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي بما يصفونك به من الكهانة، والسحر، والكذب على الله، وفيه وعيد لهم، وتسلية للرسول ﷺ، وإرشاد له إلى تفويض أمره إليه تعالى.

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧﴾.

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي وساوسهم، وأصل الهمز: النخسُ، شُبِّه حثهم للناس على المعاصي، بهمز الرائض للدابة حتى تسرع، فالشياطين يُهيِّجون الكفار والفجّار، على الكفر والعصيان.

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ٩٨﴾.

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ﴾ أي في شيء من أموري، وتخصيص حال الصلاة، وقراءة القرآن، وحلول الأجل، لأنها أحرى الأحوال بأن يخاف عليه، عن جبير بن المطعم عن أبيه قال: رأيتُ رسول الله ﷺ حين دخل في الصلاة قال: «الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرةً وأصيلاً، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، من نفخه، ونفثه، وهمزه»[1] قيل: نفخهُ: الكِبرُ، ونفثُه: الشِّعْرُ، وهمزُه: الجنونُ.

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في سننه، وابن ماجه رقم ٧٩١ باب الاستعاذة في الصلاة.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ ﴾.

﴿ حَتَّىٰٓ ﴾ متعلق بيصفون، وما بينهما اعتراض مؤكد للإغضاء عن السفهاء بالاستعاذة من الشيطان، أن يزله عن الحلم، ويغريه على الانتقام، أي يستمرون على الوصف المذكور حتى ﴿ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ وظهر له أحوال الآخرة ﴿ قَالَ ﴾ تحسراً على ما فرط فيه من الإيمان والطاعة ﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾ أي ردني إلى الدنيا، والواو لتعظيم المخاطب.

﴿ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

﴿ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ ﴾ أي فيما ضيَّعتُ من عمري ﴿ كَلَّآۚ ﴾ ردع عن طلب الرجعة، واستبعاد لهم ﴿ إِنَّهَا ﴾ أي قوله: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ ﴿ كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ ﴾ لا محالة لتسليط الحسرة عليه ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾ أي أمامهم حائلٌ بينهم وبين الرجعة وهو القبر ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ يوم القيامة، وهو إقناط كلي عن الرجعة لما أنه لا رجعة يوم البعث إلى الدنيا، بل إلى الآخرة.

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾.

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾ النفخة الثانية، التي يقع عندها البعث ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ ﴾ تنفعهم لزوال التراحم، والتعاطف، من فرط الحيرة، واستيلاء الدهشة، بحيث «يفرُّ المرء من أخيه، وأمه، وأبيه، وصاحبته، وبنيه» ولا أنساب يفتخرون بها ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ كما يفعلون اليوم ﴿ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ لا يسأل بعضهم بعضاً، لاشتغال كلٍّ بنفسه، ولا يعارضه قوله تعالى: ﴿وأقبل بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ لأن هذا عند ابتداء النفخة وذلك بعد المحاسبة ودخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ أي من زادت حسناته على سيئاته، فهو الفائز بالسعادة، ومن كثرت سيئاته وقلّت حسناته، فهو الشقي الخاسر، المخلّد في نار جهنم.

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي تحرقها، واللّفحُ كالنفخ إلا أنه أشد تأثيراً منه، وتخصيص الوجوه بذلك، لأنها أشرف الأعضاء ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ من شدة الاحتراق، والكلوحُ: تقلُّصُ الشفتين عن الأسنان، والعبوسة[١].

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ على إضمار القول، أي يقال لهم تعنيفاً وتوبيخاً: ألم تكن آيات القرآن تتلى عليكم ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي في الدنيا تكذّبون بها وتسخرون؟.

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ التي اقترفناها بسوء اختيارنا ﴿وَكُنَّا﴾

---

(١) ورد تفسير الكلوح عن النبي ﷺ، في الحديث الذي يرويه أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «تشويه النَّارُ، فتتقلَّصُ شفته العليا، حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفتُه السُّفلى، حتى تضرب سُرَّته» أخرجه الترمذي رقم ٣١٧٥ وأحمد في المسند ٣/ ٨٨.

بسبب ذلك ﴿قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ عن الحق، وهذا كما ترى اعتراف منهم، بأن ما أصابهم قد أصابهم بسوء صنيعهم.

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ لأنهم لو كانوا مجبورين على ما صدر عنهم، لما سألوا الرجعة إلى الدنيا، ولما وَعَدُوا الإيمان والطاعة.

﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا﴾ أي اسكتوا سكوت هَوَانٍ، من خسأتُ الكلبَ إذا زجرته فخسأ أي ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أي باستدعاء الإخراج من النار، وهو آخر كلامهم، ثم لا كلام لهم بعد ذلك، إلا الشهيق والزفير.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ هم المؤمنون المستضعفون، الذين كان المشركون منهم يسخرون، وقيل: هم أهل الصفة.

﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أي اسكتوا عن الدعاء بالإخراج من النار، لأنكم كنتم في الدنيا تستهزئون بالداعين من عبادي ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾ من فرط اشتغالكم باستهزائهم ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ أي تسخرون منهم وتضحكون عليهم، لأنكم لا تؤمنون بلقاء الله، ولا تفكّرون في حساب ولا جزاء.

﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ١١١ ﴾ .

﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ أي جازيتهم على ما تحمّلوا في سبيل دينهم ﴿ بِمَا صَبَرُوٓاْ ﴾ أي بسبب صبرهم على أذيّتكم ﴿ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ أي هم الفائزون بالنعيم الأبدي. فجوزوا أحسن الجزاء.

﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ ﴾ .

﴿ قَٰلَ ﴾ الله تعالى ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴾؟ أي كم مكثتم أحياءً في الأرض التي تريدون أن ترجعوا إليها؟.

﴿ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ١١٣ ﴾ .

﴿ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ استقصاراً لمدة لبثهم فيها، بالنسبة إلى خلودهم في النار، ولأنها منقضية، والمنقضية في حكم المعدوم ﴿ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴾ أي الحاسبين المتمكّنين من العدِّ.

قال ابن عباس: أنساهم ما كانوا فيه من العذاب، المدة التي مكثوها في الدنيا.

﴿ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ١١٤ ﴾ .

﴿ قَٰلَ ﴾ تصديقاً لهم في ذلك ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي لو كنتم من أهل العلم والفهم، لعلمتم قلة لبثكم فيها، والغرضُ تعريفهم قلة أيام الدنيا، في مقابلة أيام الآخرة.

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ١١٥ ﴾ .

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ بغير حكمة، حتى أنكرتم البعث ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ للحساب والجزاء؟.

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ استعظام له تعالى، أي ارتفع بذاته وتنزَّه عن المماثلة في ذاته وصفاته ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ الذي يحق له الملك على الإطلاق ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فإن كل ما عداه عبيده وهو الكبير المتعال ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ الذي يحيط بالأجرام، وهو أعظم المخلوقات، ووصف العرش بالكرم، لأنه ينزل منه الوحيُ، والخيرُ، والبركةُ.

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ يعبده ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ صفة لازمة جيء به للتأكيد، وتنبيهاً على أن التدين بما لا دليل عليه باطل ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ فهو مجاز له على قدر ما يستحقه، كأنه قيل: إن عقابه بلغ إلى حيث لا يقدر أحد على حسابه إلاّ اللهُ عز وجل ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي لا يفوز ولا ينجح الجاحد المكذب، وضع الظاهر لأن «مَنْ» في معنى الجمع، بدأت السورة الكريمة بتقرير فلاح المؤمنين، وختمت بنفي الفلاح عن الكافرين، ليظهر التفاوت الكبير بين الفريقين.

﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أمر الرسول ﷺ بالاستغفار، إيذاناً بأنه من أهم الأمور الدينية، حيث أمر به من قد غفر له ما تقدم من

ذنبه وما تأخر، روى البغوي بسنده أن رجلاً مصاباً، مُرَّ به على ابن مسعود رضي الله عنه فرقاه في أذنه ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً﴾ إلى آخر السورة، فبرأ.

نحمد الله حمد الشاكرين، ونشهد أن لا إله إلا الله رب العالمين، ونصلي ونسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المؤمنون».

* * *

obeikandl.com